صيد الإسفنج

في خليج المكسيك

لم يُعرف بعد على وجه التحقيق متى بدأت صناعة صيد الاسفنج في خليج المكسيك بأميركا الشمالية ، بيد أنه كانت هناك حوالي سنة ۱۸۷۰ ميلادية قوارب تجوس خلال الخليج في كلٍّ منها رجلان أحدهما يجذف والآخر يقوم بمهمة التحديق في دلوٍ قاعه من زجاج يضعه على سطح الماء حتى اذا لمح شيئاً من الاسفنج بادر بتدلية عصاً طويلة مثبّت في طرفها خطّاف تصل الى حيث الاسفنج موجود فيجتذبه بها .

وما أن جاءت سنة ۱۸۹۰ ميلادية حتى فكر المدعو « جون شيني جديّاً في هذه الثروة المائية وأخذ في ارسال القوارب زرافات بالقرب من شاطىء « فلوريدا » الغربي لصيده بنفس الطريقة ودأب على العمل فازدهرت هذه الصناعة وقتئذٍ ومن ثمّ تأسست بورصة الاسفنج لتنظيم تجارته وارتفعت أثمانه لغلاء أسفنج البحر الابيض المتوسط .

ولما وثق « جون شيني » المذكور من وجود الاسفنج بهذا الخليج بكميات وافرة حيث يمتد نحو خمسين ميلاً من الشاطىء آثر صيده بطريقة الغوص في الماء فتشاور مع المستر « جون كوريكوريس » في الأمر . وهو أول يوناني أقام في « فلوريدا » فأشار عليه الاخير باستدعاء نفر من غواصي جزر بحر إيجيه ببلاد اليونان . فحسن ذلك الرأي لديه وصحّ العزم على تنفيذ الفكرة وكان ذلك في سنة ۱۹۰٥ . فأرسل اليوناني واستدعى ثلاثة من الغواصين فجاءوا بعائلاتهم الى « فلوريدا » وأقاموا في مدينة « تاربون لسبرنجس » على خليج المكسيك وشرعوا في العمل توّاً .

واليوناني بطبعه شغوف بركوب البحر الذي يرى فيه أسباب معيشته كما يرى فيه أيضاً ميداناً للبطولة ورمزاً للشهرة واليه يرجع الكثير من معتقده الديني

وهنا بدأت نهضة جديدة لهذه الصناعة . ومع مرور الزمن اجتذب هؤلاء اليونان إخوانهم في المهنة من جزر اليونان فأقبل هؤلاء أيضاً بقضهم وقضيضهم وأقاموا بتلك المدينة وكوّنوا مستعمرة يونانية حتى بلغ عددهم ثلاثة آلاف وعاشوا هناك محتفظين بكل مظاهر قوميتهم وعاداتهم من لغة ومأكل وملبس وعبادة وغير ذلك ولهم كنيستهم على اسم القديس نقولا فضلاً عن الصلاة الداخلية التي تقام في كل منزل لأن حياة اليوناني وثيقة العرى بعقيدته الدينية .

وتعمل سفن الغوص في مياه يتفاوت عمقها من ثلاثين الى مئة قدم . وتقوم السفينة في الموسم الواحد برحلتين طويلتين تعود في نهاية كل منها الى الشاطئ لتفريغ ما التقط من اسفنج ولأخذ ما تحتاج إليه من مؤونة وغيرها .

وللغوّاص شغف عظيم بمهنته . ومن مأثور القول عندهم « أن من مارس الغوص عامين ظلّ غواصاً طول حياته » — ويستطيع من بلغ السادسة عشرة من العمر البدء بالغوص حتى يجاوز الستين قليلاً ثم يعتزل العمل .

ويطول موسم العمل في الخليج بسفن الغوص الى تسعة شهور سنويًّا يصرف منها الغوّاص نحو شهرين تحت الماء متنقلاً بقدميه في قاع الخليج وهو في شبه ظلمة .

وجهاز الغوص هو عبارة عن ثوب من القماش المزدوج العازل للماء ومبطن بطبقة من المطاط (الكاوتشوك) فيلبسه الغوّاص ويُحكم ربطه حول معصميه بالمطاط أيضاً . ثم يُغطى الرأس بكرة من المعدن تُثبَّت بمسامير محكمة ، وبهذه الكرة طاقتان من الزجاج السميك ينظر الغوّاص من خلالها ما حوله وفي أعلى الكرة أنبوب طويل يتصل بالسفينة لامداده بالهواء اللازم — وجهاز على ما وصفنا ليس بالشيء الخفيف الذي يتسنى للابسه التحرك به بسهولة ويُسر فهو يزن نحواً من ١٨٨ رطلاً .

ففي حلن وقت الغوص يقوم زملاء الغوّاص بمعاونته على لبسه ثم يتضرق فوق كتفيه أثقالاً من الحديد ويهبط رويداً رويداً حتى يستقر بقدميه في قاع الخليج وهناك يشعر بضغط الماء . وكلما احتاج الى هواء جديد أمال رأسه الى الوراء فيضغط على زرّ بداخل الكرة المعدنية فيتسرّب الهواء الى داخلها بواسطة الأنبوب بالقدر المطلوب .

ويرى الغوّاص المرئيات حوله ملوّنة بلون أخضر أو أزرق داكن يسترعي النظر . وهو لا يسمع لوقع قدميه على الارض صوتاً بالرغم من ان حذائيه يزنان ٣٥ رطلاً . وفي هذا السكون الرهيب يعمل الغوّاص جادًّا في طلب الاسفنج . وقد يسير ميلاً دون أن يعثر على أسفنجة تستحق الصيد . لأن القانون يقضي بمنع صيد الأسفنج الصغير الذي يقل محيط الواحدة منها عن خمس بوصات — وأحسن الاسفنج ما بلغ محيط الواحدة منها ١٦ الى ١٨ بوصة .

* * *

ويتكوّن الاسفنج من حيوين صغير وينمو نموًّا بطيئاً جدًّا في الشهور الاولى ثم يزداد اتساع محيط الأسفنجة بمقدار بوصة شهريًّا . ويقتضي ان يبلغ مدى نظر الغوّاص في الماء ست أقدام على الأقل ، غير انه يستطيع في الايام المشرقة الرؤية الى مسافة تتفاوت ما بين ٣٠ الى ٥٠ قدماً ويمكنه أحياناً رؤية قاع سفينته التي تعلوه مائة قدم إذا كان الماء أيضاً صافياً

ويتعرّف رفقاؤه الذين في السفينة على مكانه برؤية فقاقيع الهواء المتصاعدة منه ، فتتبعه الى حيث يتجه . ويحمل الغوّاص بيده كيساً من الشبك وبالأخرى خطّافاً ثقيلاً ذا ثلاث شعب يجتذب به الاسفنج المتشبّث بالصخور ويضعه داخل الكيس حتى اذا امتلأ أشار الى رفقائه بالسفينة فيرفعونه ويدلون له بغيره وهكذا . واذا حملت سفينة ما على نحو ١٥٠ الى ١٨٠ قطعة منه عدّ ذلك فوزاً .

وناهيك بعجائب الطبيعة ومفاتن البحر . فهنالك سمكة سابحة تحدّق الغوّاص بعينين نجلاوين وكأنما تقول له من أنت وما شأنك وكيف استبحت الخدور وماذا تبتغي من وراء تجوالك . وثمة نوع آخر من السمك يعترض سبيل الغوّاص الى غير ذلك من مختلف حيوانات الماء .

ويلج الغوّاص أحياناً شبه مغاور معلقة ينمّ ظاهرها على التداعي والانهيار غير إنها صلبة لا تقوى على النيل منها المعاول ، أما تكوينات المرجان فحدّث عنها ولا حرج . فهي أشجار منظومة في جبين الصخر . وأينما سرّحتَ الطرف ترى الجمال مجسماً وشتّته يد

الطبيعة خلواً من زيف أو صناعة — نباتات وماد وهضاب وأحراج وبساتين على مثال ما يُرى على سطح الأرض . والماء المحيط بكل ذلك هو بمثابة الغيم أو الضباب يغشى كل هذه المرئيات فيكسبها روعة وجلالاً . وفي ناحية أخرى جبل شامخ لم يحاول تسلقه أحد ولم تطأه قدما انسان ، ولم تعصف به قط ريح . هو بكر بين الجبال ممتنع كجبهة الأسد له سحر يلعب بالألباب ويأخذ بمجامع القلوب . تراه وكأنه يتحرك ويموج غير أنه ثابت الأركان وطيد البنيان .

كل هذا لا يشغل الغواص عن أداء مهمته ، أو يلهيه عن خطورة موقفه ، فان عينه لا تفتأ تجوس خلال الصخور والآكام باحثاً عن الاسفنج الذي هو هدفه الوحيد وضالته المنشودة ، والذي يرى وكأنه وسائد من المطاط داكنة اللون لزجة الملمس عالقة بالصخر .

واذا شاء الغواص تسلق بعض المرتفعات فتح صمام الهواء الذي بداخل كرة الرأس برهة فيتسرب جانب من الهواء الى الداخل فيخف وزنه ويطفو قليلاً وهذا مما يساعد على ارتقاء المرتفعات .

وثمة خطر يتعرض له الغواص وهو في عمق الماء ذلك هو القرش أو كلب البحر فهذا الحيوان يشتم رائحة الدم فينجذب اليه . ولذا فان قانون الغوص يقضي على الغواص لدى رؤيته لهذا الحيوان اخفاء يديه العاريتين تحت ابطيه حالاً ، وأن يهم بالصعود ولكن ببطء خشية انقضاضه عليه اذا بدت منه علائم الخوف . وعلى أثر صعوده الى السفينة يبادر رفقاؤه برفع الأثقال عن كاهله ونزع جهاز الغوص عنه تدريجياً لأن جسمه يكون مغموراً بالعرق اذا كان الفصل صيفاً . وقد تبدو عليه علائم الاعياء الشديد . ثم يستبدل ملابسه المبللة بغيرها . وكثيراً ما يخرج عن مألوف عادته على أثر صعوده من الماء فيوجه الى زملائه سيلاً من التعنيف الشديد لسبب قد يكون تافهاً غير أن أحداً منهم لا يجرؤ أن يجيبه بكلمة لعلمهم بما هو مستهدف له من المخاطر في كل لحظة . ولكنه لا يلبث أن يستجمع شعوره ويثوب الى رشده .

وكثيراً ما يصاب الغواص بشبه كساح أو شلل وقتي اذا لم يتح له الوقت الكافي للراحة بين فترات الغوص ولصعوده من الماء بسرعة كبيرة .

وكلما صعد غوّاص من الماء نزل آخر مستخدماً نفس جهاز الغوص . ويستطيع الغوّاص النزول الى جوف الماء من ثلاث الى ست مرات في اليوم الواحد تبعاً لحالة الطقس وعمق المياه . أما مدة مكثه فتتفاوت من بضع دقائق الى نصف ساعة أو أكثر .

ومحظور على الغواص تناول أي طعام أو ماء طول نهار العمل "الا" مقادير من القهوة المركزة . فاذا ما انتهى يوم العمل وأعدّ له الطعام تهافت عليه تهافت الجياع على القصاع .

ومتى انتهى اليوم وآذنت الشمس بالمغيب انصرف الجميع الى اللهو والطرب على أضواء الشموع التي تتجاوب مع لمعان الكواكب . وأدير الراديو لسماع الموسيقى والأخبار وتمسي السفينة وكأنها جزيرة صغيرة تعج بمختلف الأصوات وتترنم بالأغاني والأهازيج حتى اذا قضوا جانباً من الليل انصرفوا الى النوم بعد أداء فرض الصلاة الجامعة .

والغوّاص هو الشخص الممتاز بين رجال السفينة نظراً الى نوع عمله وخطورته .

* * *

أما الاسفنج المستخرج الذي يكون مغلفاً بطبقة هلامية كالمطاط فيوضع أكواماً ويغطى بقماش كثيف ويترك زمناً لينضج على حد تعبيرهم . وبعد أن يجف يتشقق هذا الغلاف ويتساقط بعضه . ثم يستعينون على نزع الباقي بعدى قصيرة . وبعد ذلك يوضع في أواني بها ماء وملح ويعالج حتى ينتقي من المواد الغريبة وينظم عقوداً في خيوط ويعلق في الهواء ليجف ويزداد نقاوة .

وبعد ذلك يرسل الى بورصة الاسفنج التي تنعقد مرتين في الأسبوع لبيعه . وصيد كل سفينة يوزّع ثمنه على رجالها حصصاً متفقاً عليها . فللغوّاص أربعة أنصبة ونصيبان لكل من سائر العمال . أما الربان فله نصيب أوفر .

وللاسفنج درجات متباينة تبعاً للنعومة والمتانة ومقاومة الضغط وقوة الامتصاص للماء واللون وبعض مميزات أخرى

من الانجليزية بتصرف

أمين عيره
بوزارة الزراعة سابقاً